الفصل الأول

المبحث الأول:

الإيمان وصحيح العقيدة وسبقتهما على الكفر والإلحاد

إن الشعور الديني قديم قدم الإنسان، والأمر هو كذلك بالنسبة للعبادة، إذ كانت العبادة أياً كان أسلوبها لازمة من لوازم ذلك الشعور.

واختلف الباحثون في أصل الأديان في أي من العقيدتين كان أسبق إلى الظهور والوجود، أهو عقيدة الخرافة والأساطير أم هو عقيدة التوحيد؟ مثلما اختلفوا في الإجابة على سؤال هل إن الشعور الديني حصل لدى الإنسان في عهوده الموغلة في القدم نتيجة لما لاحظه من مظاهر الطبيعة الموحشة منها الباعثة على الرهبة والخوف والدهشة! أم حصل عنده هذا الشعور عن طريق هداية الله التي أيقظت في أعماقه فطرة الإيمان بالله فعبده بلون من ألوان العبادة الصحيحة التي رسم خطوطها وبيّن حدودها حملة الهداية من الأنبياء والرسل عليهم أفضل صلاة وأزكى سلام.

والذي نعتقده هو أن عقيدة التوحيد كانت أسبق في الوجود على عقيدة الشرك والخرافة والأساطير، وإن الشعور الديني حصل لدى الإنسان بما رُكِز فيه من فطرة الدين، وبإرشاد وتوجيه ممن كان سبحانه وتعالى يرسلهم هداة إلى البشر ليأخذوا بيد هذه الفطرة لتسير في مسارها الصحيح، ليقيها من الوقوع في مزالق الضلال والتيه في متاهات باطل الأفكار ومزالق التصورات.

obeikandl.com

وما نعتقده يرشد إليه العقل، فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان وقدر أن يكون خليفته في الأرض لابد أن يهديه، وينير أمامه سبل الحياة، ويزوده بما يصلح حاله، وبما تستقيم معه عقيدته وتصح به عبادته. وهذه الهداية تمت على أيدي من اصطفاهم الله من البشر وجعلهم أهلاً لحمل رسالته من الأوامر والنواهي والإرشاد والتوجيه.

وتبعاً لهذا نعتقد أن الزيغ في العقيدة، وعبادة مظاهر الطبيعة وتقديس الأصنام والأوثان هي أمور طارئة على عقيدة التوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى.

إن أول مخلوق بشري وهو آدم عليه السلام الذي تناسل منه ومن زوجته الناس جميعاً كان رسولاً إلى أفراد عائلته وأحفاده وأسباطه، وقد زوده الله بلون من ألوان هدايته، ليكون مناراً يهتدي به الإنسان في سلوكه وعقيدته وعبادته، وسار أبناؤه ومن تناسل منهم ردحاً من الزمن على صحيح العقيدة إلى أن ابتعدوا بالتدريج عن هذا المنار، وتاهوا في متاهات الفكر والخيال، ومثلوا للخالق تماثيل وأضفوا عليها ألواناً من التقديس، وسلك بهم الكهان مسالك الضلال، واخترعوا لهم صوراً من العبادة، وادَّعوا لأنفسهم الاستئثار بمعرفة شؤون الغيب، والتمكن من الاتصال بما اختلقوه من الآلهة وادعوا القدرة على مخاطبتها وجلب منافعها ودفع شرورها.

وتصحيحاً للمسار البشري الخاطئ في العقيدة والتصور كان الله سبحانه وتعالى يرسل بين فترة وأخرى إلى الأقوام التي تناسلت من أولاد آدم أنبياء ومرسلين يحملون إليهم هدايته، ويبصرونهم بما درجوا عليه من الزيغ والضلالة ليعيدوهم إلى نبع الإيمان الصحيح، فكان يهتدي من يريد الاهتداء، ويبقى على غيه وضلاله من كان في صمم عن سماع نداء الحق، وفي غشاوة عن رؤية شعاع الإيمان.

ومصداق ما نعتقده والدليل عليه من الكتاب هو قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾(1).

وإننا لو استقرأنا التاريخ الموغل في القدم لمختلف الأقوام والشعوب لوجدنا سبقة التوحيد لديها على الشرك، كما كان الشأن لدى قدماء الهنود وقدماء المصريين قبل عهد الفراعنة وقدماء أهل الصين.

ويظهر مما كتبه محمود أبو الفيض من ص44 إلى ص100 في كتابه: الدين المقارن: إن الديانة البرهمية من الديانات القديمة وكتابها المعروف بـ (فيدا) الذي هو أقدم من التوراة بآلاف السنين، قد ورد فيه ذكر الله ﷻ باسم (براهما سباتي) ومعناه في السنسكريتية رب الصلاة والذي له الصلاة وحده أو الذي يحقق رغبات الإنسان ويستجيب إلى الدعاء ويتصرف في الشؤون السماوية والأرضية. والله سبحانه وتعالى عند قدماء البراهمة هو إلٰه واحد لا شريك له، وغاية الإنسان هي الاتصال به والرجوع إليه، ويكون ذلك بالعبادة المثمرة وعدم التوسع في مطاليب الحياة.

ولكن بمرور الزمن حلت الوثنية في هذه الديانة، فجاء بوذا المصلح بمذهب يمتد إلى أصل هذا الدين مع زيادة في بعض القواعد ونقص في بعضها الآخر، غير أن مذهبه بمرور الزمن جعل ديناً مستقلاً واتخذ إلهاً يعبد، وتقدم له القرابين وتتلى أمام ما اتخذ له من الهياكل التراتيل والتوسلات.

أما المصريون الذين استعبدتهم الفراعنة فترة من الزمن فالتحريات والآثار التي اكتشفت في أراضيهم تدل على أن التوحيد كان سابقاً على الشرك عند قدمائهم، وتدل على أن (إدريس عليه السلام) الذي كان آدم جده الخامس - كما يقال - كان مرسلاً إليهم، ويدعى عندهم بـ (حوريس) أو (هوروس) كان يأمرهم بعبادة الله وحده وحب الناس والعدل في التصرفات، والإحسان إلى الناس، وحرم الخمر والخنزير.

(1) سورة البقرة، الآية: 213، ولتفسير الآية راجع تفسير المنار 2/ 276، تفسير الكشاف 1/ 355.

ولكن الخلف لما ابتعدوا عن هذا العهد غزت عقيدتهم الوثنية والشرك، فعبدوا الأشخاص والهياكل كرموز وخصائص لله.

وقدماء الصينيين كانوا يعتقدون بوجود إله واحد يجل عن الإدراك، يدبر الأكوان، وهو كائن في أي مكان اتجه إليه الإنسان، وكانوا يعبدونه بالقلب ويتوسلون إليه بالقرابين.

ومن أقوال أحد ملوكهم: إن الله أعطى كل إنسان ضميراً إذا اتبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوي.

وحال الصينيين كحال غيرهم لما طال عهدهم بعقيدة التوحيد صارت مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب معبودات يتقربون إليها بألوان من العبادات، كما عبدوا حكماءهم وأباطرتهم.

وزعيمهم الروحي (كونفوشيوس) الذي ولد قبل الميلاد بخمسة قرون ونصف قرن، وقبل موت بوذا بحوالي مائة سنة كان موحداً يعتقد بوجود إله واحد يجب عبادته وحده، ولكن بعد فترة من الزمن حيكت حوله الأساطير وأسبغ عليه هالة من التقديس حتى صار معبوداً يعبد من دون الله.

بنو إسرائيل ورثوا عقيدة التوحيد عن آبائهم، ولما طال بهم العهد اتخذوا لهم أرباباً من دون الله، والله سبحانه وتعالى يقول فيهم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾[1].

جاءهم العلم بحقيقة الإيمان وأصول الشريعة على لسان أنبيائهم، ولكنهم حادوا عن النهج الصحيح فضلوا كما ضل المصريون في عهد الفراعنة.

ولما أرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليجدد لهم ما أتى به أنبيائهم من قبل من الهداية وخرج بهم من مصر متوجهاً إلى أرض المعاد وغاب عنهم مدة أربعين يوماً حيث ذهب لميقات ربه لتلقي أحكام التوراة، أشركوا بالله إذ اتخذوا من

(1) سورة الجاثية، الآية: 17

حليهم عجلاً وعبدوه، لأن نفوسهم كانت متصلة بوثنية آل فرعون، وبهذا الصدد يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

وقالت طائفة منهم إن عزيراً ابن الله، فزادوا بذلك ضلالاً على ضلال وظلماً على ظلم، وطغت عليهم المادية فصاروا عبيداً لها، ولما استفحل الفساد فيهم أرسل الله إليهم عيسى عليه السلام ليذكرهم بشرع الله المرسل إلى موسى مزوداً بتعاليم الإنجيل فآمن به من آمن، وزاد ضلالاً على ضلال من أبى وأنكر.

ولكن ما إن مضت فترة على الذين اتبعوه حتى بدأت الوثنية تأخذ سبيلها إليهم فجعلوا من الإله الواحد ثلاثاً، وأقاموا الصور والتماثيل والهياكل لعيسى وأمه مريم، وقدسوها وتقدموا إليها بالتعظيم والابتهالات، واتخذوا من القس والرهبان والأساقفة وسطاء بينهم وبين الله واتخذوهم أرباباً من دون الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2] وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[3].

وعبادة الأحبار والرهبان تتمثل لهم في التسليم لهم بحق التشريع وتحليل ما يحللونه وتحريم ما يحرمونه، هذه الأمور التي هي لله وحده، وليس لأحد سواه.

ولقد روى أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم الطائي الذي تنصّر في الجاهلية، أنه عندما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرَّ إلى الشام، وأسرت أخته في واقعة مع جماعة من قومه، والرسول عليه الصلاة والسلام عندما علم بذلك منَّ عليها وأكرمها، ولما التحقت بأخيها حبذت إليه القدوم

(1) سورة البقرة، الآية: 92.
(2) سورة المائدة، الآية: 73
(3) سورة التوبة، الآيتان: 30، 31.

على الرسول ﷺ، فقدم المدينة مع جماعة من قومه وفي عنقه صليب، ولما رآه ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[1] قال عدي: إنهم لم يعبدوهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[2].

والعرب في بداية أمرهم كانوا موحدين يدينون بدين إبراهيم عليه السلام القائم على التوحيد الخالص، وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع له والتقرب إليه، والشرك أخذ طريقه إليهم فيما بعد، فمنهم من عبد الشمس ومنهم من عبد القمر ومنهم من عبد الملائكة ومنهم من عبد الأصنام والأوثان، بعد أن زاد عددهم وبارحوا مكة بعد إسماعيل عليه السلام، وانتشروا في أجزاء من جزيرة العرب، إذ كلما ترك قسم منهم مكة أخذ معه شيئاً من حجارة الحرم للتبرك بها، وهذا أدى بهم إلى تعظيم هذه الأحجار والتقرب بها إلى الله[3].

ويقال إن أول من أدخل إليهم عبادة الأصنام، وغير عليهم دين إبراهيم عليه السلام هو عمرو بن لحي بن حارثة، فإنه رأى قوماً بالبلقاء في الشام يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذا الذي تعبدونه، فقالوا: أرباب اتخذناها على هيئة الهياكل العلوية، وأشخاص من بشر نستنصر ونستسقي بها. فطلب منهم صنماً فأعطوه هبل الذي صار فيما بعد كبير آلهة قريش في الكعبة، وكان ذلك قبل الإسلام بحوالي 400 سنة.

وهنا كانت الحاجة ماسة لتتدارك عناية الله مرة أخرى البشرية برسالة عامة شاملة أخيرة لتعيد إلى المجتمعات توازنها في السلوك والقيم والاعتقاد والعبادة، فأرسل الله سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ رسولاً ونبياً إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه خاتم رسالته التي ضمنها من الحيوية والمرونة والشمول والوضوح ما يقدر لها الخلود إلى أن يأذن الله للوجود بالفناء.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 31.

(2) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، للخضري، 1/ 7677.

(3) تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، للدكتور حسن إبراهيم حسن، 1/ 99.

إن الإسلام أول ما أتى، قبل النظر في أي أمر تشريعي، بدأ بتصحيح الاعتقاد فحارب الشرك بالله، واتخاذ الشفعاء إليه والاستعانة بالوسطاء لاستمطار رحمته محاربة لا هوادة فيها ولا كلل، محاربة لم تقبل أي لين أو مساومة أو تساهل، إنه لم يسلك التدرج في المحاربة بخصوص هذه المسألة كما كان شأنه في تقرير الأحكام التشريعية التي تنظم صلة الناس بعضهم ببعض فأعلن في أول يوم حدّده الله للإعلان عنه، أن ليس في الوجود إلّا إلٰه واحد، بيده مقاليد السماوات والأرض، ليس كمثله شيء، إليه يرجع الأمر كله، وليس لأحد معه حكم ولا سلطة، ولا يستعان بأحد لنيل رضائه وثوابه أو دفع نقمته أو عذابه، فالأمر كله منوط بامتثال أوامره وامتثال أوامر رسوله، التي هي من أوامره ﷻ .

والرسول ﷺ ظل في مكة قرابة ثلاث عشرة سنة وكله جهد ومحاولة لاستئصال كل جذور الشرك في المجتمع الجاهلي، وإحلال عقيدة التوحيد الخالص محلها، وغرسها في قلوب مشركي قريش وغيرهم من العرب الذين كانوا يقدمون إلى مكة في مواسم الحج وغيرها من المناسبات، وبذل أقصى جهده مع المسلمين الأوائل من الصحابة لتنفير الناس من الأصنام والأوثان والنصب[1]، ولتخليص أذهانهم عمّا علق بها من الأساطير والخرافات التي حاكها حول هذه المعبودات الكهنة والعرافون المشعوذون الذين كانوا يوهمون أن لهذه الأصنام والنصب والأوثان أرواحاً خفية وهم يستطيعون الاتصال بها لجلب خيرها ودفع ما يأتي منها من شر.

ولا عجب إذن أن يحرم الإسلام إقامة الهياكل ونحت التماثيل وصنع الصور المجسمة سداً للذريعة وإغلاقاً لباب الفتنة على العقيدة لما فيها من معنى التعظيم لها، ولأنها مظنة ليضفى عليها بمرور الزمن لون من ألوان التقديس فتعود إلى المجتمع الإسلامي واجهة من واجهات الجاهلية الأولى ولون من ألوان الشرك.

---

(1) الصنم: ما كان على شكل الإنسان من معدن أو من خشب. والوثن: ما كان على شكله من حجر. أما النصب: فهي صخرة لم تكن لها صورة معينة كانت تعظم وتعبد.

ولا عجب كذلك أن يؤكد الإسلام كل التأكيد عدم وجود أي واسطة بين العبد وربه سوى واسطة العبادة والخضوع لأوامره ونواهيه والعمل الصالح ابتغاء نوال رحمته، فهو سبحانه وتعالى أقرب إليه من حبل الوريد، فلا كهانة ولا كهنوت في الإسلام، وليس هنالك من تقتصر عليهم وحدهم معرفة أوامر الله وأسرار شريعته، وليس هنالك رجال الدين بهذا المفهوم، وإنما هنالك علماء لأصول الدين وشريعته وفروعهما، هم على تفاوت في مقدار المعرفة، وليس لأي منهم مهما بلغت منزلته في العلم والفهم حق التشريع عن الله، وإنما له حق الاجتهاد فيما لا نص فيه بما يحقق مصلحة أو يدفع مفسدة، أو الاجتهاد من معنى النص إن كان محتملاً لأكثر من معنى وفق الضوابط المعروفة في أصول الفقه.

قد يقال إن لوناً من ألوان الكهنوت قد أخذ سبيله إلى المجتمعات الإسلامية هنا وهناك، وإن بعض مظاهر الشرك ذرّ قرنه في عقيدة فئات منتسبة إلى بعض الطرق الصوفية، فيرى قسم من الناس في بعض الشيوخ المنتسبين إلى هذه الطرق أن بيدهم جانباً من الخير، وأن رضاهم من رضاء الله وسخطهم من سخطه، فيتقربون إليهم بالهدايا، ويظهرون أمامهم الذل والافتقار، ويقفون بين أيديهم بكل خشوع وتقديس، ويحلفون بهم كما يحلفون بالله سبحانه وتعالى وغير هذه الأمور التي تفوح منها ما يشبه رائحة الشرك.

ثم ألا ترى أن التوسل بالأضرحة وأصحابها سلك طريقه إلى عقيدة قسم من المساكين، وهو لون من ألوان الوثنية، فترى خلقاً منهم يتزاحمون في التقاطر على ضريح من هذه الأضرحة، ويتبركون به ويطوفون حوله ويقفون أمامه كما كان يقف أهل الأصنام والهياكل أمام أصنامهم وهياكلهم طالبين منه ما لا يطلب إلا من الله.

وقسم منهم يشدون الرحال إلى بعض هذه الأضرحة مستصحبين معهم القرابين ويمكثون حوله ما يشاؤون من الأيام والليالي راجين مالا يجوز رجاؤه إلّا منه سبحانه وتعالى.

نعم كل هذا حاصل في بعض المجتمعات الإسلامية، وعند قسم من

المسلمين، ولكنه لا يؤثر على أصل عقيدة التوحيد ولا يشوّهها، كما لا يلبس علينا صحيح أوجه العبادة، لأن معالم التوحيد وأساليب العبادة الصحيحة واضحة ومرسومة في كتاب الله على وجه لا يقبل الاختلاف والجدل، ويبقى هذا الوضوح والرسم دون أن تعكر صفاءها شوائب الروافد مادام القرآن باقياً يتلى ومصاناً عن كل تبديل أو تحريف، وهو باق ومصان لأن الله سبحانه وتعالى تكفل ببقائه وقدر صيانته مما لحق بكتب الأنبياء السابقين من التغيير والتبديل والتحريف، وواضحة أيضاً من سنة رسوله الكريم صلوات الله عليه وسلامه.

ثم إن العلماء العاملين واقفون بالمرصاد لكل من يحاول تحريف العقيدة عن مسارها، ويردّون على أهل الأهواء والغايات من أرباب الزيغ تلبيساتهم وأساليبهم في الضلال.

لذلك لا خوف على عقيدة الإسلام وأسسه وشريعته، ولن يغير شيئاً من أصولها مثل هذه الانحرافات التي تقع هناك وهنالك من قبل بعض المسلمين الجاهلين بحقيقة دينهم، وإن الرسوم الصحيحة للعبادة تظل واضحة لا تقبل إلصاق ما ليس منها دجل المشعوذين الذين يأكلون الدنيا باسم الدين.

المبحث الثاني:

حقيقة الإيمان والإسلام

الإسلام هو دين الله المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ، ودينه المنزل على أنبيائه السابقين.

وهذا الإسلام الذي أكرمنا الله به إذا نظرنا إليه كدين وشريعة نرى أنه مرتكز على ثلاثة أصول: أصل الإيمان، وهو ما درج الاصطلاح على تسميته بأصول الدين. وأصل الإسلام، وهو ما يسمى اصطلاحاً بأصول الإسلام. وأصل الإحسان. وهذه الأصول الثلاثة قد جمعها وأوضحها حديث عمر بن

الخطاب ﷺ ، إذ ورد عنه كما جاء في صحيح البخاري: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد منا حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**»، قال: صدقت - قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدقه - قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك....**»[1].

فأنت ترى معي أن الشق الأول من الأسئلة يتعلق بأصل الإسلام المرتكز على خمسة أركان، أما الشق الثاني منها فهو يرتكز على خمسة أركان أيضاً. أما الشق الثالث منها فإنه يتعلق بأصل الإحسان في القول والعمل وكذلك في الإعراض عنهما عند لزوم الإعراض.

ويجمل بنا هنا أن نوضح معنى كل من الإيمان والإسلام ووجه الترابط بينهما في اللغة وفي اصطلاح الشرع كما بينه الإمام الغزالي.

فالإيمان في اللغة بمعنى التصديق والاعتقاد، وهذا المعنى واضح من تفسيره ﷺ لمعنى الإيمان في حديث عمر ﷺ المشار إليه وواضح من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[2] حكاية عن قول إخوة يوسف لأبيهم، أما الإسلام فهو بمعنى الاستسلام والإذعان والانقياد، وهذا المعنى ظاهر أيضاً من تفسيره عليه الصلاة والسلام في الحديث نفسه.

ومحل التصديق هو القلب، واللسان هو الذي يفصح عن هذا التصديق

---

(1) رواه الخمسة، انظر: التاج 1/ 20-21.
(2) سورة يوسف، الآية: 17.

ويعلنه، أما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والأعمال، فكل تصديق بالقلب واعتراف وإطاعة وانقياد بالجوارح هو تسليم، وعليه يكون الإسلام أعم والإيمان أخص، إذ كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.

وقد ورد استعمال اللفظيين على لسان الشارع على سبيل الترادف وعلى سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل.

أما ورودهما على سبيل الترادف فمثل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[2].

فالمراد بالمسلمين في الآيتين هو من تحقق تسليمهم باطناً بالقلب وظاهراً بالجوارح، والمراد بالمؤمنين فيهما هو من ينطبق عليهم هذا الوصف نفسه، وإن كان الإيمان في اللغة بمعنى التصديق القلبي، إذ تم إدخال الوصف الظاهري في معناه، وهذا سائغ في اللغة لأن تسليم الظاهر تسليم بالقول وبالعمل هو نتيجة التصديق القلبي وأثره وثمرته، فإننا نطلق اسم الشجرة على الشجرة مع ما تحمل من ثمر، وعليه يكون معنى المؤمنين في الآيتين مرادفاً لمعنى المسلمين ومطابقاً له، وذلك بتحميل الإيمان المعنى الظاهري للفظ التسليم.

أما ورودهما على سبيل الاختلاف فمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾[3] فالمراد بالإيمان هنا هو التصديق القلبي المجرد، والمراد بالإسلام هو الاستسلام الظاهري باللسان دون الاستسلام الباطني والتصديق القلبي.

فحصر معنى الإيمان هنا بالتصديق فقط هو أمر موافق للغة، كما أن حصر معنى الإسلام بالاستسلام الظاهري وحده فيه هذه الموافقة أيضاً، لذا ساغ إطلاق اسم الإسلام على الإسلام الظاهري المجرد عن الإسلام القلبي.

---

(1) سورة الذاريات، الآيتان: 35، 36.
(2) سورة يونس، الآية: 48.
(3) سورة الحجرات، الآية: 14.

وأما ورودهما على سبيل التداخل فهو مثل ما ورد أنه ﷺ سئل أي الأعمال أفضل فقال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام»، قال السائل: أي الإسلام أفضل، قال ﷺ: «الإيمان»[1]. وذلك لأن الإسلام إما تسليم بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، وأفضله هو الذي يكون بالقلب، وهو ما يسمى إيماناً، والإيمان عمل من الأعمال، وهو أفضل كل الأعمال.

والتداخل هذا يوافق اللغة في خصوص الإيمان بأن يعتبر الإسلام تسليماً بالقلب والقول والعمل كلها، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام وهو التصديق القلبي[2].

وبعد هذا الإيضاح أود أن أبين أمرين: أول هذين الأمرين هو أن دعائم هذه الأصول - أصول الإسلام والإيمان والإحسان - وأركانها متشابكة مترابطة فلا يستقيم أي منها إلا باستقامة بقيتها، وطروء خلل في ركن أصل من هذه الأصول يدعو إلى طروء الخلل في بقية أركانها، فركن الإيمان بالله سبحانه وتعالى في الأصل الأول هو الركن الأصيل الذي يتوقف عليه قيام بقية أركان هذا الأصل وأركان الأصلين الآخرين جميعها. فالإحسان في العبادة قائم على دعائم الإسلام وأركانه، وأركان الإسلام قائمة على أولى دعائم الإيمان، ودعائم الإيمان قائمة على أولى دعائمه وهي الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

والإيمان بالله ﷻ هو في الحقيقة أساس سعادة الإنسان إذ به يواجه مشاكل الحياة دون أن ينال الأمراض النفسية والاضطرابات الفكرية الباعثة على القلق والعقد نتيجة الاصطدام بالمتاعب التي تواجه الإنسان وتعترض سبيله وتحول بينه وبين ما يصبو إليه من غاية ومأرب.

نعم إنه أساس سعادته ومصدر نعمته وأمنه النفسي وشاطئ أمانه من الغرق في بحر الهموم، والحارس الأمين الذي يقف سداً منيعاً من أن تفتك به نوائب الدهر ومزعجات الليالي وصروف الأيام وتقلباتها وما يتخللها من الأزمات.

---

(1) رواه الطبراني كما ذكره الحافظ العراقي، راجع إحياء علوم الدين 1/ 122.
(2) راجع إحياء علوم الدين للغزالي 1/ 121، 122.

وهذا هو ما استقر عليه علم كبار علماء النفس فـ (وليم جيمس) يقول: إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان، ويقول إن الإيمان من القوى التي لابد من توافرها لمعاونة المرء على العيش، وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة، وقال: إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشراقه تعالى تحقق كل أمانينا وآمالنا، ويقول: إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله خليق بأن لا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة، فالرجل المتدين حقاً عصيّ على القلق محتفظ أبداً باتزانه، مستعد دائماً لمواجه ما عسى أن تأتي به الأيام من ظروف وتقلبات.

ويقول المحلل النفسي (أ. أبزيل): أن المرء المتدين لا يعاني مرضاً نفسياً. وقال العالم النفسي الأمريكي (هنري لينك) في كتابه (العودة إلى الإيمان) أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة في تطبيق الاختبارات النفسية على العمال في عملية الاختبار المهني والتوجيه المهني، أن الأشخاص المتدينين الذين يترددون على دور العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين لهم،أو لا يقومون بأية عبادة.

والمؤرخ الإنكليزي (أرنولد توينبي) المعروف بغزارة علمه قد ذكر أن الأزمة التي يعاني منها الأوروبيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه هو الرجوع إلى الدين[1].

أما ثاني الأمرين الذي أود إيضاحه، فهو: إن العبادات بمعناها الاصطلاحي الفقهي المشتملة على الواجبات التي أشار إليها جواب السؤال الأول من حديث عمر بن الخطاب، وبمعناها العام الشامل لكل لون من ألوان البر القولي أو الفعلي لم يقصد بها إلا مصلحة العباد وصلاح حالهم في عاجلهم وآجلهم، لأنه سبحانه وتعالى غني كل الغنى عمن سواه، وعن أي ضرب من ضروب العبادات، وعن أي لون من ألوان الطاعات، فلا ينفعه خضوع

(1) القرآن وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي، 241.

الطائعين، ولا يضره تمرد المارقين ولا جحود الجاحدين، وقد ورد في الحديث القدسي: (. . .يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)[1].

المبحث الثالث:

العبادة وحقيقتها

العبادة أثر من آثار الإيمان، وكلما رسخ الإيمان وقوي في القلب حمل صاحبه على حسن العبادة واستمرارها.

والعبادة لغة: بمعنى الطاعة، والعبودية هي الخضوع والاستكانة والانقياد. قال ابن منظور: أصل العبودية الخضوع والتذلل، ونقل عن الزجاج أنه قال: معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء، وعن الأنباري أنه قال: فلان عابد، أي أنه الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره، وعن الزهري أنه قال: لا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله.

---

(1) رواه مسلم عن أبي ذر، راجع صحيح مسلم باب تحريم الظلم 4/ 1994، 1995، الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية، للشيخ محمد المدني، 263، 264. الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية لزين الدين عبد الرؤوف، 85، الأحاديث القدسية، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1/ 266.

وعن الليث أنه قال: يقال للمشركين عبدة الطاغوت، ويقال للمسلمين عبيد الله[1].

وهي في الاصطلاح غاية الخضوع والانقياد لله سبحانه وتعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والانشغال به بالجنان أو بالجنان واللسان بالتدبر والذكر، وبسلوك المسالك المحببة إليه عن رغبة وحب، فهي لها عنصران عنصر الامتثال والانقياد وعنصر الشوق والمحبة والتذلل.

قال العالم الجليل السيد رشيد رضا: تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه، فمن انتهى إلى أقصى الذل لرئيس من الرؤساء لا يقال أنه عبده ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه أو الرجاء بكرمه[2].

قال ابن تيمية: العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب التيتم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب ثم العشق ثم التيتم، يقال: تيم الله أي: عبده[3].

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له كما قد يحب الرجل ولده وصديقه.

فالعبادة إذن تتضمن غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده، ولا يجد حلاوة الإيمان بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما. ورد عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه**

(1) لسان العرب.
(2) تفسير المنار 1/ 56 - 57.
(3) العبودية لابن تيمية.

إلّا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يلقى في النار».

ولهذا اتفقت دعوة الرسل كلهم على عبادة الله وحده، لا شريك له، وكمالُ العبادة لا يكون إلّا بمحبة الله سبحانه وتعالى محبة تليق بكمال ألوهيته وربوبيته.

والمحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته، وبجانب هذا هنالك محبة ضارة وهي أيضاً ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تحول محبته عن محبة الله.

فمحبة الله من أعظم واجبات الدين وأكبر أصوله وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقاً مثل محبته له يكون من الشرك على الوجه الذي لا يغتفر ولا يقبل لصاحبه معه عمل.

ومحبة الله لا تتحقق إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولهذا جعل سبحانه وتعالى اتباع رسوله دليلاً عليها لأنه يدعو إلى محبة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾[1] فجعل عز من قائل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله وشرطاً لمحبة الله لهم.

ولا يمكن أن تتحقق العبودية الصحيحة إلّا بأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل شيء في الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله أو خوف

(1) سورة آل عمران، الآية: 31.
(2) سورة التوبة، الآية: 24.

أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه أو معاملة أحدهم على معاملة الله، أو حكم أحد على حكم الله ورسوله فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإنما هو من يكون ما قدمه من الأمور أحب إليه من الله ورسوله، ويكون عبوديته لمن قدمه بمقدار حبه له، لأن حبه هذا هو الحامل له على هذا التقديم[1].

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجاته ودفع ضروراته قويت عبوديته له وغناه عما سواه.

فكما أن طمعه في المخلوق يوجب لوناً من عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، فالقلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذَّ ولا أمنع ولا أطيب.

ومن استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره ويذل له، فإن الإنسان يتحرك بالإرادة، وكل إرادة لا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب فهو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده ويستذل له فيكون عبداً ذليلاً لذلك المراد المحبوب[2].

والعبادة في الحقيقة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

إنها تشمل الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج وما يقوم به الإنسان من السنن والنوافل وقراءة الأذكار المأثورة، وتشمل كذلك صدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتشمل مجاهدة الأعداء من الكفار والمنافقين والإحسان للجار والمساكين

---

(1) مدارج السالكين (1/ 100، 99).
(2) العبودية (61، 69).

وابن السبيل وإطعام البهائم والسعي لقضاء حوائج الناس وإصلاح ذات البين وإخبات الإنسان لنفسه لتدارك عيوبه وتركه ما لا يعنيه والتفرغ إلى الله والالتجاء إليه والاستعانة به والخشية منه والإنابة إليه.

كما تشمل إخلاص الدين له، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر على نعمائه، والتوكل عليه، والخوف من عقابه، والطمع في رحمته ورضوانه، وقراءة القرآن والتدبر في معانيه، وغير ذلك من الأفعال والأقوال المقربة من الله سبحانه وتعالى[1].

وإذا أردنا التوسع في بيان معناها بعض الشيء، قلنا إنه كل الأعمال المشروعة التي يقوم بها الإنسان، وكل الأقوال المشروعة التي يتفوه بها إن قصد بها وجه الله هي عبادة يؤجر عليها، وكذلك الأمر بالنسبة للامتناع عن كل فعل أو قول يترتب على عدم الامتناع عنه أمر مكروه، بقصد مرضاة الله سبحانه وتعالى هي عبادة مقربة منه جل شأنه.

فالحاكم إن عدل في أحكامه ولم يفرق بين الناس ولم يحاب أحداً وأخذ على يد الظالم وانتصف للمظلوم وسعى لإسعاد الرعية واستقام في تصرفاته وهو يستشعر حب الله ومخافته يكون عابداً طيلة انشغاله بواجباته وانصرافه إلى أعماله.

والمدرس عابد أثناء انشغاله بالتدريس، وإن تقاضى الأجر عليه، إن استغل أوقات الدرس بالتوجيه الصحيح والتدريس المثمر، واستشعر رقابة الله عليه وابتغى رضاءه بأداء واجبه.

والطالب عابد في حلقة الدرس إن قصد من تثقيف نفسه الوقوف على الحلال والحرام، وتمييز الخير من الشر ليجافي الشر ويقدم على الخير، وليكون عضواً صالحاً في بناء المجتمع يفيد نفسه وأهله ومن يتقلب في مجتمعه من خلق.

---

(1) العبودية (3، 4)، العبادة في الإسلام، للقرضاوي (50، 51).

وكل من العامل والصانع عابد أثناء العمل والقيام بالصنعة إن بذل الجهد الممكن في عمله، ورأى حرمة ما يتقاضاه من الأجر إن فرط في عمله أو صنعته وشعر بالمسؤولية أمام الله بقدر ما بدر منه من إفراط وتقصير وحاول تدارك التقصير.

والتاجر إن وضع خشية الله أمام عينيه في تجارته وابتعد عن الغش والتدليس، وابتغى الحصول على الرزق الحلال لنفسه ولأهله، وتجنب مقاربة الحرام في بيعه وشرائه امتثالاً لأمر ربه يكون عابداً مأجوراً طيلة ساعات انصرافه إلى تجارته وتقلبه في الأسواق طلباً للكسب المباح.

والماشي لعيادة المريض، والساعي لزيارة الأقارب وتفقد أحوالهم، ولزيارة وتفقد أحوال الأصدقاء والإخوان في الله طلباً لثواب الله عابد ينال ثواب الله ويلقى إكرامه.

وكذلك الحال في الأقوال، فالرجل الذي يسعى بين متخاصمين أو بين طائفتين متعاديتين بالكلام الذي يطفئ نار الفتنة أو يخفف من ثائرة الأحقاد والأضغان حباً في الخير وطلباً لثواب الله يكون عابداً مقرباً من الله.

والشاهد عندما يتحرى الصدق في شهادته ويؤديها على الوجه الصحيح أداءً لأمانة الله الملقاة على عاتقه عابد أثناء شهادته ويكتب له الأجر في صفحات تصرفاته.

والشأن هو نفسه بالنسبة للامتناع عن كل فعل أو قول يكون في الامتناع عنه مرضاة الله سبحانه وتعالى، فالممتنع عن مقاربة المحرمات على الرغم من سائق الشهوات في نفسه ووساوس الشيطان في قلبه خوفاً من الله عابد ساعة مكابدته سائق الشهوات، ووقت مقاومته ما يوسوس به الشيطان من النزوات.

والممتنع عن الكذب وقول الزور خوفاً من الله عابد ساعة امتناعه، والمحتسب الساكت عن مقابلة فحش الكلام بمثله، والإعراض عن السب والشتم طمعاً في ثواب الله عابد ساعة سكوته وإعراضه وصبره.

وحتى الرجل عندما يأتي أهله وهو يقصد إحصانها وإحصان نفسه إضافة إلى

قصد التمتع واللذة يكون عابداً، وهذا ما قرره الرسول ﷺ عندما سئل: أيؤجر الرجل على إتيان أهله، فقال ما معناه: نعم، فكما أن الرجل يعاقب إن وضع شهوته في حرام، فإنه يكون مثاباً إن وضع شهوته في حلال.

إذاً العبادة لها معنى واسع وشامل، ويلزم على ضوء هذا المعنى أن نفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي ليخضعوا وينقادوا ويأتمروا بما أمر الله به وينتهوا عما نهى عنه، ويحاولوا التماس كل ما يحبه، ويبتعدوا عن كل ما يكرهه.

فالمسلم لا يمكن أن يكون عابداً صحيحاً، وتتمثل فيه العبودية الحقيقية بمجرد قيامه بالواجبات المفروضة عليه من صلاة وصوم وزكاة وحج وقراءة بعض الأوراد عقب الصلوات وقبلها وهو لا يلتزم بما أمر الله به من السلوك والتصرفات في حياته اليومية في بيته وفي مجتمعه، ولا يحتكم إلى شرع الله في معاملاته وتقاضيه مع الآخرين.

وفي هذا المفاد يقول (ليوبولدفايس) الكاتب النمساوي الجليل الذي أسلم واتخذ اسم (محمد أسد) اسماً له في الصفحة 21 من كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) : يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في دين آخر، إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً.

وإذا كانت الغاية في حياتنا على العموم (عبادة الله) فيلزم حينئذ أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي من ذلك المنهج العالمي الذي أبدعه الله.

إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل، إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها هي معنى الحياة نفسها، ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.

حياتنا إلى قسمين اثنين، حياتنا الروحية وحياتنا المادية، يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكون (كلًّا) واحداً منسقاً... إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.

ومما يقوله سيد قطب - أسكنه الله في فسيح جناته - بهذا الصدد: وأنواع النشاطات التي أطلق عليها الفقهاء اسم العبادات لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاطات الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم المعاملات، إنما جاءت هذه كتلك شطراً من منهج العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، وتحقيقاً لمعنى العبودية ومعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية...

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات وإلى معاملات مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة الفقه، وهو ما جعل بمرور الزمن أن يترسب في تصورات الناس أن صفة العبادة إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله فقه العبادات، وهو انحراف بالتصور الإسلامي، إذ ليس في التصور الإسلامي نشاط إسلامي إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، ولا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، فالمنهج الإسلامي غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً[1].

وإذا كانت العبادة لها هذا المفهوم العام الواسع فلماذا اصطلح الفقهاء على إطلاقها على معنى خاص وهو الصلاة والصوم والزكاة والحج من أركان الإسلام؟

الذي يبدو لي هو أن هذه الواجبات هي الواجبات المفروضة التي يتساوى في لزوم أدائها والقيام بها كل المكلفين في أوقات معينة وبكيفيات مرسومة، فالصلاة مثلاً يلزم أداؤها في اليوم خمس مرات في أوقات متفرقة ثم تحديد بداياتها ونهاياتها، ويجب أداؤها بهيئات مخصوصة، وقل مثل هذا بالنسبة للصوم والحج إذ لكل منهما وقت محدود وطريقة مفروضة، والأمر هو نفسه

(1) خصائص التصور الإسلامي (129، 130).

بالنسبة للزكاة إذ حدد نصابها ومقدارها في كل ما وجب نقداً كان أو زرعاً أو حيواناً أو عروض تجارة، وهذه الواجبات واجبات مرسومة ليس فيها مجال للنظر والاجتهاد.

ثم إن هذه الألوان من العبادات المفروضة إن أداها المكلف على الوجه المطلوب وأحسن القيام بها فإنها تقوي إحساس التقوى لدى صاحبها وتبعث في أعماقه شعوراً يسوقه نحو كل لون من ألوان العبادات التي أشرنا إلى طرق منها استزادة في الخير وتقرباً إلى المولى جل شأنه.

أما بقية ألوان العبادات فهي غير مرسومة على نحو معين، وهي بعضاً خاضعة للنظر، ويجوز فيها الاجتهاد تبعاً لتغير الظروف والأحوال.

والشارع قد استعمل بعضاً من العبادة بمعناها الخاص، وبعضاً آخر بمعناها العام فمجيئها بمعناها الخاص فهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1] ومثل قوله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»[2] وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، «**فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد**»[3].

أما مجيئها بمعناها العام فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[4] المار تفسيره قبل قليل، ومثل قوله ﷺ: «**أفضل العبادة الفقه**»[5] فالعبادة هنا أتت بمعناها العام، فهي تشمل أداء الفرائض وقراءة القرآن، وتشمل الانشغال بالفقه والانصراف لكل ما هو بِرٌّ من الأعمال، والاجتناب لِما هو منهي عنه من الأفعال والأقوال ابتغاء مرضاة الله في كل ذلك.

والعبادة سواء أخذت بمعناها العام أو بمعناها الاصطلاحي الخاص يجب

---

(1) سورة الحجر، الآية: 99.
(2) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، انظر التاج (1/ 55، 54).
(3) روى الحديثين الترمذي، المصدر السابق (1/ 56).
(4) سورة الذاريات، الآية: 56.
(5) انظر التاج (1/ 57).

أن تلازم الإنسان وأن ينهض بها العبد مادام حياً ولاسيما الفرائض المفروضة بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ واليقين هنا بمعنى الموت، بدليل قوله تعالى على لسان أهل الكفر الناكرين ليوم القيامة والحساب ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾[1] أي الموت.

والعبد مهما فتح الله له من أبواب فيوضاته، بكثرة عبادته، وأنعم عليه الفضل بالمكاشفات والكرامات ازداد عبادة وتقوى. وما ذهب إليه بعض الملاحدة المارقين ممن يدعون التصوف تضليلاً للبسطاء من سقوط الواجبات الشرعية وإباحة المحرمات لأهل الوصول، إن هو إلا انسلاخ من الإيمان وزندقة في العقيدة، وخداع لمن ينخدع بأقوالهم وتنطلي عليهم أكاذيبهم.

فلو كان سقوط التكاليف الشرعية وارداً عن عبد من العباد لسقط عن الأنبياء والمرسلين، فأقرب خلق الله إلى الله هو الرسول ﷺ كان أكثر الناس عبادة وتقوى إلى آخر لحظة من حياته، وهو يقول: **«من استوى يوماه فهو مغبون»**.

هذا وأدعو الله لي ولك أيها القارئ حسن التقوى والعبادة وحسن الخاتمة.

(1) سورة المدثر، الآيتان: 46، 47.

obeikandl.com